الوظيفة الحجاجية للاستعارة

(خطب الشيخ عبدالرحمن السديس نموذجا)

د. حصة بنت سعود الهزاني *

تاريخ تقديم البحث:22 /11 /2016م. تاريخ قبول البحث:18/6 /2017م.

ملخص

يتناول هذا البحث خطاب الدكتور السديس من ناحية الجوانب الحجاجية في توظيف الاستعارة بوصفها أداة تفكير وبناء معرفي يؤثر في النص والمتلقي، وذلك في سبع خطب تناولت موضوعا واحدا من أهم الموضوعات المطروحة في الساحة الاجتماعية والسياسية؛ فهو موضوع يلقي بظلاله على العالم، إذ هو محرك سياسي في الداخل العربي والخارجي العالمي؛ إنه الإرهاب وما يرتبط به من مفاهيم مغلوطة وأفكار منحرفة.

وسوف يتناول هذا البحث الاستعارة من خلال مباحث أربعة.

المبحث الأول: مفهوم الحجاج

المبحث الثاني: الحجاج في البلاغة العربية

المبحث الثالث: الطاقة الإقناعية للاستعارة وأثر السياق في توظيفها

المبحث الرابع: الاستعارة الحجاجية وإنتاج الدلالة في خطب السديس.

الخاتمة: الخلاصة والتوصيات.

وقد خلص البحث إلى عدة أمور كان أهمها أن خطاب الدكتور السديس لم يكن خطابا إخباريا بقدر كونه خطابا تأثيريا تغييريا، وتبين أن الشيخ وظف الصورة البلاغية توظيفا حجاجيا مستغلا ما فيها من طاقة إقناعي.

وبذلك تأكد لنا أن خطابه خطاب حجاجي إقناعي، يحمل طاقات فوق طاقات الكلام، ويحمل معاني ثانية، تؤدي إلى تغير موقف المتلقي، وتجعله كارها للخلاف محبا للإيلاف، مدركا أن سعادة الأمة ونهضتها يكون بوحدة الصف ووحدة الكلمة.

* قسم اللغة العربية، جامعة الأمير سلطان بن عبدالعزيز، السعودية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

The Argumentative Function Of Metaphor
Speeches of Sheikh Dr. Abdul Rahman Al-Sudais As A Model

Dr. Hessa Saud Elhazani

Abstract

This research paper deals with the argumentative function of metaphor in Dr. Abdul Rahman Al-Sudais's Gomaa speeches (Friday Speeches) as a tool of thinking and a knowledge structure that affects the text itself and the recipients. It covers with analysis one of the most important issues in the social and political arena that casts its shadow over the world including the Arab World: it is terrorism with its interrelated misconceptions and deviant ideas. The concept of terrorism has been dealt with in seven speeches of Dr. Abdul Rahman Al-Sudais. This paper tackles the metaphor in these speeches in five chapters:

Chapter one: The Concept of Argumentative Function.

Chapter Two: The Argument in Arabic Rhetoric.

Chapter Three: The Persuasive Power of Metaphor and the Impact of the Context in its Employment.

Chapter Four: Declarative Metaphor and Production of in the sermons of Al-Sudais.

Conclusion & Recommendations

The paper reached the conclusion that the speeches of Dr. Al-Sudais were not reportative in their main context but they were of a modulatory effect in the greatest part. It appeared that Al-Sudais employed the rhetorical image from an argumentative perspective based on his power of Persuasion. Such a rhetorical feature asserts the argumentative and persuasive nature of Al-Sudais's speeches. His speeches grant vigor to the energies of speech, and carries other meanings that lead to a change in the perceptions and attitudes of recipients. His speeches make the recipients abandon discord and replace it with a spirit of love and harmony; the thing that guarantees the happiness and solidarity of our nation.

تعد نظرية الحجاج من أهم النظريات اللغوية التي ازدهرت في ساحة الدرس اللساني الحديث، وتهتم بدرس تقنيات الخطاب التي تجعل العقول تذعن لما يطرح عليها من آراء وأفكار، وأنجع الحجاج ما يؤثر في السامعين، ويبعثهم على العمل والإنجاز.

ونظرا لما حققته نظرية بلاغة الحجاج من انتشار وتأثير في ميادين البلاغة المختلفة، رأت الباحثة أن تدرس خطاب الشيخ عبد الرحمن السديس بوصفه خطابا دينيا يؤثر في فئة عريضة من الناس، فهو إمام الحرم المكي وكذلك لما يتضمنه من مكونات الخطاب الحجاجي، فهو خطاب موجه يحمل مضمونا ويتخذ قضية يسعى للإقناع بها والحجاج عنها. ونقف في خطاب الشيخ السديس على الجوانب الحجاجية في توظيف الاستعارة بوصفها أداة تفكير وبناء معرفي يؤثر في النص والمتلقي، وذلك في سبع خطب تناولت موضوعا واحدا من أهم الموضوعات المطروحة في الساحة الاجتماعية والسياسية، فهو موضوع يلقي بظلاله على العالم، إذ هو محرك سياسي في الداخل العربي والخارجي العالمي، إنه الإرهاب وما يرتبط به من مفاهيم مغلوطة وأفكار منحرفة.

وسوف يتناول هذا البحث الاستعارة من خلال مباحث خمسة:

أولا: مفهوم الحجاج:

عرف بيرلمان الحجاج بقوله، هو: "دراسة تقنيات الحجاج التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة التسليم" [1].

وكل خطاب يسعى إلى تدعيم أو إيجاد موقف تجاه قضية ما، هو في حقيقة الأمر حجاج، ثم تطور إلى نظرية شاملة في مختلف الميادين[2].

وقد فرّق اللغوي الفرنسي أزفالدديكرو (O.DUCROT) بين معنيين للفظ الحجاج: المعنى العادي، الذي يقوم على طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التأثير في السامع، ويكون بذلك

(1) perelman et Tytica,traite de 1 argumentaion,p.87 نقلا عن: الاستعارة في خطب علي بن أبي طالب السياسية: وسمية الحجاج، مقال بمجلة: حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، العدد/48، 2004 ص 244

(2) انظر: محمد ولد سالم أمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، منشورات المركز العالمي للدراسات والأبحاث، طرابلس، ط1: ص16

الخطاب ناجعا فعالا حين يكون مناسبا للسامع قادرا على إقناعه. والمعنى الفني، يهتم بالعلاقات المودعة في الخطاب والمدرجة في اللسان[1].

فالخطاب الحجاجي يتميز من سائر الخطاب بكونه خطابا هادفا مبنيا بناء استدلاليا يعتمد على الحجة والاستدلال، له أبعاد تداولية أهمها البعد السياقي والبعد الشمولي التفاعلي[2]، وله آليات معرفية تسهم في بنائه تقوم على الآليات المجازية المرتبطة بالتمثيل والتخييل والاستعارة، فقد ذكر ميشيل في تعريفه للصورة: أن الصورة عنصر محسوس يقتنصه الكاتب من خارج الموضوع الذي يعالجه، ويستخدم ذلك العنصر لأجل توضيح قوله، أو لأجل التمكن من حساسية القارئ بواسطة الخيال[3]، والشاهد يعرّف بوصفه قصة موجهة لاستخدامها كدعامة تبريرية، وهو أداة لإثارة تصديق الواقعة التي يساق من أجلها، وقد ذكر أدانك: أن التشبيه يمكن أن يستخدم كأداة توضيح في قول ما، إلا أن دوره يكون أحيانا مهتما بتوصيل الإحساس[4].

ثانيا: الحجاج في البلاغة العربية:

الحجاج بهذا المعنى المعتمد على الإقناع والتأثير كان متربعا على عرش الدراسات العربية القديمة، فالمتلقي عند الإمام عبدالقاهر الجرجاني يحتل مكانة سامية، ويفترض وجود متلق واع يدرك مقاصد النصوص ويستطيع الكشف عن مخفي الأمور، ويكون قادرا على انتزاع المعاني من دلالات الألفاظ، حتى: "تقر الأمور قرارها، وتوضع الأشياء مواضعها، والنزاع إلى بيان ما يشكل، وحل ما ينعقد، والكشف عما يخفى، وتلخيص الصفة حتى يزداد السامع ثقة بالحجة، واستظهارا على الشبهة"[5]، ويقول عن أثر التمثيل في النفس: "ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يُعهد ظهوره منه وخرج من موضع ليس بمعدن له، كانت صبابة النفوس به أكثر،

(1) انظر: صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، دار صفحات للنشر والتوزيع، سوريا، ط1 2008: ص 21.

(2) انظر: د. نعمان بوقرة، الخطاب الأدبي ورهانات التأويل، عالم الكتب الحديث، الأردن 2012: ص 118.

(3) فرانسومورو، البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة محمد الولي وعائشة جرير، أفريقيا الشرق 2003: ص18.

(4) المرجع السابق، ص 54.

(5) عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5 1424هـ: ص 34.

وكان بالشغف منها أجدر[1]، فجعل الإمام عبدالقاهر تحليله المرهف للصورة قائما على الذوق الفني، وما تثيره المفردات من استجابة فنية في نفس متلقيها.

وتحدث علماء العرب عن التشخيص، وأنه من الوسائل المهمة التي تُبنى عليها الصورة التشبيهية، وهو عملية نفسية محضة، ووظيفته التأثير في نفس المتلقي وإثارة انفعاله المناسب عن طريق تشخيص المعاني المجردة في صورة حسية [2].

لقد ارتبط النص الأدبي بالجمهور، وبما يحمله إليهم من قيم وتطلعات، وأصبحت قيمته تقاس بمدى تقبل المتلقي له وتأثيره فيه، وصارت معرفة عقليات المتلقين ضرورة ينبغي أن يدركها المبدع، ومتى لامس المبدع شعور المتلقي حصل التواصل بينهما، ولا يتم للأديب المبدع إحداث انفعالات في نفس القارىء ولا يتم للقارىء التمتع بأثر الأديب المبدع إلا في الموطن المشترك بينهما[3].

فالصورة الفنية تدفع المتلقي دفعا نحو الإسهام في إنتاج الدلالة، فيلعب المتلقي دورا في بناء دلالة النص، وخصوصا أن النصوص لا تقول كل شيء، وإنما تلمح أكثر مما تصرح، وهناك مساحات بيضاء في النص، يملؤها المتلقي وفق مقاصده ووفق السياق[4].

ثالثا: الطاقة الإقناعية للاستعارة وأثر السياق في توظيفها:

الاستعارة ركيزة من ركائز الخطاب بالنظر إلى الدور الذي تقوم به في نقل معاني النص، فالاستعارة ليست مجرد زخارف لغوية يلجأ إليها المتكلم لتحسين الكلام[5]، بل إنها تقوم بوظيفة تفاعلية بين سياقات مختلفة، فالاستعارة حاضرة في كل مجالات حياتنا، فهي حقيقة في الفكر البشري، ووسيلة معرفية فاعليتها شأن فاعلية التجارب الإنسانية الأخرى [6].

(1) عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة 1412هـ: ص 131.

(2) د. يوسف أبو العدوس، التشبيه والاستعارة من منظور مستأنف، دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2007: ص113.

(3) أحمد بن عبدالله الملا، تلقي عبدالقاهر الجرجاني في النقد العربي الحديث، إصدارات نادي حائل الأدبي، ط1 1436هـ: ص 172.

(4) حسن خالفي، البلاغة وتحليل الخطاب، منشورات الاختلاف. دار الفارابي **ومنشورات الاختلاف** الطبعة: الأولى2011م. ص 151.

(5) د. أيمن أبو مصطفى، الحجاج في الخطابة والرسائل في مصر زمن الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمنهور 2011م: ص 125.

(6) انظر: جورج لايكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة: عبدالمجيد جحفة، دار توبقال، 1996: ص 12.

من هنا جعلها أرسطو "آية الموهبة التي لا يمكن أن يستفيدها المرء من غيره"[1]، وقد ذكر رتشاردز أن" الاستعارة هي المبدأ الحاضر أبدا في اللغة، فنحن لا نستطيع أن نصوغ ثلاث جمل بدون استعارة، حتى وإن كانت في اللغة الجافة للعلوم الراسخة لا يمكننا أن نستغني عنها [2].

وجاز لنا أن نذهب إلى أن اللغة في جوهرها استعارية، (والاستعارة إذا وقعت موقعها، وأصابت غرضها، وصل المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع)[3]، هنا تكون الاستعارة قد أدت وظيفتها الأساسية بإحداث الأثر في نفس المتلقي، فقد أدرك الإمام عبدالقاهر الجرجاني بحسه المرهف القيمة من الاستعارة، حيث ذكر أنها تبرز البيان في صورة مستجدة، وتوجب له بعد الفضل فضلا، وترى بها الجماد حيا ناطقا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخافية بادية، وتريك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون[4].

ومن المسلم به أن الاستعارة لها أقسام وتفريعات لن نخوض في ذكرها فقد أكثر فيها الباحثون القول، ونرى أن عبدالقاهر الجرجاني لم يكن معنيا بالكشف عن المصطلحات العلمية للاستعارة بقدر اهتمامه بالكشف عن مواطن جمالها وعلاقتها بخلجات النفس والفكر الإنساني، كما ذكر (د.شفيع السيد) بقوله: "فخلا تحليله لبعض الاستعارات التي تناولها من رصد لوجه الشبه الذي يجمع بين طرفيها، فكان أصدق تعبيرا عن العلاقات الجديدة بين الأشياء، وأرهف تذوقا لأساليب اللغة، وأبعد عن تحكم القواعد، على النحو الذي يتجلى في منهجي السكاكي والخطيب"[5]، ولذا فإن منهج عبدالقاهر الجرجاني في دراسته الاستعارة يكشف عن عقلية عربية واعية للوظيفة التي تؤديها الاستعارة في النص.

فالوظيفة التي تؤديها الاستعارة ليست وظيفة زخرفية قائمة على استبدال لفظ بآخر لغرض التحسين والزخرفة، بل إن وظيفتها أعمق من هذا بكثير، إذ إنها تغوص في أعماق الفكر الإنساني، وتخالج كوامن النفس، وتعبث بالمشاعر، وتأتي بالانزياحات اللغوية لتهيج المتلقي، فيتخذ موقفا معينا تجاه قضية ما.

(1) أرسطوطاليس، في الشعر، ترجمة: شكري عياد، المركز القومي للترجمة، 2012: ص 128

(2) انظر، آيفور آر ريتشارد، فلسفة البلاغة، ترجمة: سعيد الغامدي، د. ناصر حلاوي، أفريقيا الشرق، المغرب 2002: ص 93

(3) انظر: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص 22

(4) انظر: المرجع السابق. والصحيفة نفسها.

(5) د. شفيع السيد، التعبير البياني، رؤية بلاغية نقدية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4 1995: ص 135.

ومن المعلوم[1] أنّ "التركيب تختبئ في خصائصه وأحواله إشارات ودلالات مختلفة، وأنّ السياق هو الذي يستخرج من هذه الخصائص مقتضياته، وكأنّ التركيب النفسي أشبه بقطعة من معدن نفيس تعطي ألواناً كثيرة كلما أدرتها إدارة جديدة والسياق هو القوة التي تحرك هذه القطعة لتشع من ألوانه ما يراد إشعاعه"[2] وبناء على ذلك فقد جعل "المفسرون والأصوليون من المعرفة بأسباب النزول أصلاً من أصول تفسير القرآن الكريم واستنباط الأحكام لا يقومان إلا به وما المعرفة بأسباب النزول إلا استحياء للمقام لا مندوحة عنه لفهم المقال" [3]

فالمعنى المنطوق (الخطاب) يتحدد في ضوء الظروف التي يرد فيها. وهذا ما عبرت عنه البلاغة العربية القديمة بعبارتي "مقتضى الحال، ولكل مقام مقال"[4]. ولكي يكون الرجل بليغا، عند الرومانيين القدامى، عليه أن يجعل لكل مقام مقالا لغويا ملائما له[5]. ومعنى الكلمة عند أصحاب النظرية السياقية هو (استعمالها) في اللغة، أو (الطريقة) التي تستعمل بها، أو (الدور) الذي تؤديه، "ولهذا يصرح فيرث بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية"[6]، ويؤكد أهمية سياق الحال (سياق الموقف) الذي يتكون من مجموع العناصر المكونة للحدث الكلامي، وتشمل هذه العناصر التكوين الثقافي للمشاركين في هذا الحدث، والظروف الاجتماعية المحيطة به، والأثر الذي يتركه على المشاركين فيه. وبذلك لا يقتصر سياق الحال أو الموقف عنده، على السياقات اللغوية، فحسب.

ومن هنا يضطلع السياق "بأدوار كثيرة في التفاعل الخطابي، مثل تحديد قصد المرسل، ومرجع العلامات"[7]. ولذلك نظر إلى التداولية على أنها تحليل للوقائع الملاحظة، التي ينظر إليها في علاقتها بسياقات وجودها الواقعية[8].

(1) د. أيمن أبو مصطفى: التفضيل في أحاديث صحيح البخاري دراسة أسلوبية مقارنة، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة المنوفية، كلية الآداب، جمهورية مصر العربية، صـ 120 وما بعدها.

(2) د. محمد أبو موسى: دلالات التراكيب دراسة بيانية، مكتبة وهبة، مصر ط3 1425: صـ253.

(3) د. سعد مصلوح: في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية. **عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية الطبعة الأولى – 1414هـ/1993م**، صـ37.

(4) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ط7 1418 ج1 : ص 136.

(5) د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة ط12004: ص 79.71.

(6) د. نعمان بوقرة: اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، ط1، إربد، الأردن، 2009: ص122.

(7)عبدالهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2004م.، صـ: 40.

(8) صابر الحباشة: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: ص19 .

وتأسيسا على ذلك يكون للسياق دور فاعل في إنتاج الخطاب، وتشكيله اللغوي، وتأويله. وبعبارة أخرى، يمكن القول: إن الخطاب ينبني وفق عناصر سياقية، هي [1]:

1. المنتج/ المتكلم.
2. المتلقي/ المخاطب.
3. العناصر المشتركة (العلاقة بين طرفي الخطاب، والمعرفة المشتركة والظروف الاجتماعية العامة، بما تثيره من افتراضات مسبقة وقيود تؤطّر (عملية التواصل).

فالعلاقة بين المعنى والمبنى علاقة تداخل وتبادل وظيفي، فلابد من مراعاة العناصر غير اللغوية مع مراعاة الوظائف الصوتية والصرفية والنحوية لكل كلمة داخل التركيب؛ لأنها تشكل أهم مستوى للوحدات الدلالية، "ومما لاشك فيه أن مجرد وضوح العلاقات بين الكلمات ومعانيها لا يؤدي إلا لفهم المفردة على المستوى المعجمي، فوضوح المعنى للمفردة لا يكشف عن المعنى الحرفي الذي يسمى (ظاهر النص) أو معنى (المقال) لأن الذي لدينا هنا، هو (المفردات) وليس (النص) وذلك أيضا لأن المعنى (ظاهر النص) يحتاج إلى وظائف (المعنى الوظيفي) كما يحتاج إلى العلاقات الصرفية والمعاني المعجمية؛ إذ منها معا يكون معنى (المقال) وهذه العلاقات لا شك أنها تحتاج الى المعنى الاجتماعي الذي هو يكمل (المعنى الدلالي)، ولهذا يعد الجانب العملي في النص الأدبي هو الجانب الحقيقي في دراسة النص كونه يتجاوز مرافقة اللغة للقانون اللغوي إلى اقتفاء الطبيعة النفسية من صاحب النص ومتلقيه"[2]

وسياق خطب شيخنا هو واقع مؤلم مرير تمر به أمتنا الإسلامية من تشتت وضياع وتمزق، فالإرهاب والعنف والخلاف يحيط بها من كل جانب، ولذا كانت حرقة شيخنا بصوته القوي الذي يهز القلوب هزا.

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق: 39.

(2) د.حسن عبد الهادي الدجيلي: تقنيات المنهج الأسلوبي في سورة يوسف، دراسة تحليلية في التراكيب والدلالة: دار الشؤون الثقافية العامة بغداد: ط1: 2005م :.صـ 16–17

رابعا: الاستعارة الحجاجية وإنتاج الدلالة في خطب السديس:

ليست الاستعارة زخرفة لفظية، وإنما هي منتج للدلالة ومؤسس للمعنى، فهي تؤدي دورا حجاجيا واضحا في خطاب السديس، ومن هنا سنجد أنه يعتمد عليها حين يريد أن يقنع المتلقي بالأثر السيء للمفاهيم المنحرفة، فيقابل بينها وبين المفاهيم الصحيحة الرصينة، فيضع المتلقي بين نوعين متقابلين من المفاهيم، النوع الأول وهو الأخطر، مفاهيم منحرفة ظاهرة بينة لا يخفى على أحد أثرها وعواقبها على الفرد والمجتمع، والنوع الآخر، مفاهيم صحيحة رصينة قائمة على منهج عقدي سليم، هذه المفاهيم السليمة توارت واختفت في أنفاق مظلمة في ظل انتشار تلك المفاهيم الغربية وطغيانها، يقول الشيخ عن المفاهيم المنحرفة بأنها أنفاق مظلمة: "حتى توارت المفاهيم الصحيحة في أنفاق مظلمة من المفاهيم الغربية"[(1)]، فالمفاهيم المنحرفة هي مفاهيم (غربية) جاءت من الغرب المنحرف عن المنهج الرباني، فكريا وعقديا، وهذا في حد ذاته حري بالحذر منها، وفي ظل انسياق شبابنا خلف تلك المفاهيم المنحرفة التي هي "بحر سحيق لا ساحل له"[(2)] توارت المفاهيم الصحيحة. لقد جسد المفاهيم الصحيحة وهي أمر معنوي في صورة شيء حسي يتوارى ويختفي، ثم شبه الضلال وعدم الوصول إلى هدف الحياة السليم شبه هذه الصورة بصورة أنفاق مظلمة، فنحن أمام صورة أنفاق مظلمة كثيرة متعددة وليست نفقا واحدا، وذلك لكثرة مذاهب الفكر المنحرف ومصادره، إذا دخل الشخص ذوي الفكر السليم فإنه يتوارى ويختفي ولا يُعرف نهاية هذا النفق، ظلمة ووحشة ومرارة الألم النفسي الذي سيذوقه هو ومجتمعه.

ثم نجده يعتمد على صورة أخرى توضح الخطر الذي يحيط بالأمة الإسلامية، يقول: "حماية للسفينة من الإغراق بأيدي أقوام سفهت أحلامهم، وارتكست في حمأة التبديع والتفسيق والتكفير أقدامهم، بل تعدى الأمر إلى حمل السلاح والتفجير، وسفك الدماء والتدمير"[(3)].

لقد جعل الأمة الإسلامية وقد أحاطت بها المخاطر من كل الجهات بسبب أفكار مضللة يحملها سفهاء الأحلام، فتقع الأمة بسببهم في درك الخطر، شبه هذه الحالة بحال سفينة تشق عباب بحر، فتحيط بها الأمواج العاتية فتكون عرضة للخطر والهلاك، واختيار الخطيب لهذه الصورة (صورة السفينة) جاء في موضع ملائم مقنع، إذ إن السفينة تتجسد فيها صورة الخطر والهلاك واضحة، ولكي

(1) د.عبدالرخمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة من منبر الكعبة الشريفة مكتبة إمام الدعوة العلمية، مكة المكرمة 2002م، ط1 ص 399.

(2) نفسه، ص 403.

(3) نفسه، ص 444.

تزداد الصورة جمالا وإقناعا وتأثيرا، نجده يستدعي جبل الجودي إنه جبل الأمان الذي رست عليه سفينة نوح – عليه السلام – قال تعالى: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) {هود 44 }. فجبل الجودي رمز للأمان والنصر.

ويستدعي الخطيب صورة الطوفان بقوله: "أيها المسلمون لا يرتاب الغيورون على أحوال الأمة، أنها تعيش زمن طوفان الفتن، وأن واقعها المرير يعج بفتن عمياء، ودواه دهياء، قد انعقد غمامها، وادلهم ظلامها.." [1].

لقد استدعى الخطيب (طوفان قوم نوح عليه السلام) والعذاب الذي حل بهم حين حادوا عن الطريق القويم والمنهج السليم.

ولئن كان طوفان قوم نوح طوفانا حسيا قضى عليهم في لحظتهم، فإن طوفان أمة محمد – صلى الله عليه وسلم– أشد وأنكى، إنه طوفان من فتن عمياء، أخبر عنها المصطفى، فقد ذكر الراوي: (كنا عند رسولِ اللهِ – صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ – قعودًا فذكر الفتنَ فأكثر ذكرَها حتى ذكر فتنةَ الأحلاسِ فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ وما فتنةُ الأحلاس؟ قال: هي فتنةُ هرَبٍ وحرْبٍ ثم فتنةُ السَّرَّاءِ دخَلُها أو دخَنُها مِنْ تحت قدمَي رجلٍ مِنْ أهلِ بيتي يزعمُ أنه مِنِّي وليس مِنِّي إنما وليِّيَ المُتَّقُونَ ثم يصطلحُ الناسُ على رجلٍ كورِكٍ على ضِلَعٍ ثم فتنةُ الدُّهَيماءِ لا تدَعُ أحدًا مِنْ هذه الأمةِ إلا لطَمَتْه لطمةً فإذا قيل انقطعتْ تمادتْ يُصبِحُ الرجلُ فيها مؤمنًا ويُمسي كافرًا حتى يصيرَ الناسُ إلى فُسطاطَينِ فُسطاطُ إيمانٍ لا نفاقَ فيه وفُسطاطُ نفاقٍ لا إيمانَ فيه إذا كان ذاكم فانتظِروا الدجَّالَ مِنَ اليومِ أوغدٍ)[2].

يقول الشيخ السديس: (يوزعون صكوك جهنم على الخليقة وهم لايشعرون والله المستعان)[3]، جهنم ليس لها صكوك توزع، لقد شبه الخطيب حال هؤلاء الخارجين عن الملة والنهج القويم وإغوائهم للآخرين والتسبب في إدخالهم النار بارتكابهم المخالفات الشرعية من قتل وسفك للدماء، بحال من يوزع صكوك جهنم على الناس، لأنهم بفعلهم هذا واستجابتهم للفئة المارقة، دون تحكيم العقل يستحقون النار وبئس المصير، والجامع بين الحالتين (تحقق المصير البئيس لهم)، والخطيب هنا استدعى ما يسمى بـ (صكوك الغفران) في الكنيسة الكاثوليكية التي ترى لنفسها حق الغفران للمسيء في الدنيا، وتمكنها من سلطان قوي جبار، وهو سلطان مسح الذنوب وغفرانها مهما يكن مقدارها، ومهما تكن قد دنست النفس

(1) نفسه ص 450.

(2) موقع الدرر السنية https://www.dorar.net

(3) د. عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة من منبر الكعبة الشريفة مرجع سابق، ص 458.

وأركست القلب، وقد أفرط رجال الدين في إعطاء صكوك الغفران إفراطا شديدا، وصارت هذه الصكوك تباع وتشرى، فباعوها كأنها عرض من أعراض الدنيا، ومتعة من متعها، وبذل العصاة في سبيلها المال، فأوقعتهم في ارتكاب أصحاب المعاصي ما شاءوا من الموبقات ونيل ما تهوى أنفسهم من معاص[1]، وننتقل هنا إلى صورة أخرى مرتبطة بسياق الخطبة، وظفها الخطيب ليشرك الجمهور في تأويلها، وينتقل به من المعنى السطحي المباشر إلى المعنى العميق، يقول: (وتعرض عن نور الوحي والنصوص، وتصاب بسكر يرديها أشد البؤوس)[2]، لقد شبه الغفلة التي تظهر على الأمة حين تبتعد عن نصوص القرآن والسنة، بحالة سكر، والمتلقي هنا تتجسد أمامه صورتان، الأولى أمة أعرضت عن نصوص صريحة واضحة تنير الطريق وتهدي العقول إلى الصواب، لكنها أعرضت عنها، وأخذت بأهواء وأفكار بشرية أضاعت العقول، وأدت إلى تشعب الطرق، واختلاف الآراء، فلم تعد الأمة بعدها قادرة على تمييز الصواب من الخطأ، والثانية حالة إنسان سكران زال عقله بالشراب، فلم يعد قادرا على التمييز أيضا، صورتان تؤديان إلى معنى واحد، وهو الإعراض عن الحق والنور ما يؤدي إلى الغفلة، وقد استدعى الخطيب هذه الصورة لتنسجم مع سياق التقبيح والتنفير من الإعراض عن الطريق القويم.

ويصور لنا كيفية تغلغل هذا الفكر بين شباب الأمة: (وما زال الفكر التكفيري يسري بقوة في صفوف شباب الأمة)[3] الفكر يسري بقوة، والفكر أمر معنوي لا يسري، والإسراء يكون في الليل، والليل فيه معنى الخفاء والستر، ما يشعر بالخوف، أولا يريد أن يكتشفه أحد فإنه يسري في الليل، وهذا الفكر التكفيري لأنه مخالف للفكر القويم السليم فإنه يسري، جاء في لسان العرب: "سريتُ سُرى بمعنى إذا سرتُ ليلا" [4]، جاء في محكم التنزيل: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) {الإسراء : 1 }.

هؤلاء الأعداء يصطادون بالماء الأجاج، وهم لا يصطادون على وجه الحقيقة، لكن الخطيب أراد أن يؤثر في المتلقي من خلال الكشف عن طرق هؤلاء المنحرفين فكريا، فشبه تحين فرص الضعف والمشاكل التي تعاني منها الأمة بالاصطياد في الماء الأجاج، والجامع بين الصورتين (تحين الفرص في ظل الانشغال بشيء آخر، وهذا يدل على أن الفتنة الضالة تعمل في خفاء في تصيد شباب الأمة في ظل انشغال الأمة بالابتلاءات والمشاكل التي تعاني منها، وهذا أوجع.

(1) انظر: الشيخ محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، طبعة الرئاسة العامة للإدارات والبحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد، الرياض 1404 هـ: ص 209.

(2) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة من منبر الكعبة الشريفة مرجع سابق ص 464.

(3) المرجع السابق ص 465

(4) ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3 1419 هـ، (سرا).

ولوكان هؤلاء الضالون يثقون بصواب صنيعهم، لعملوا في وضح النهار وواجهوا الفكر بالفكر، ووضعت كل نقطة على حرفها فلا تضيع النقاط ولا تضل الحروف ولا يتوه القارئ بين السطور، لكنه الفكر المارق والحقد الناقع من أعداء الأمة الإسلامية (والله متم نوره ولوكره الكافرون) {الصف: 8 }.

ويستعير السفينة، للتعبير عن حال الأمة، أي خلل في جزء منها سيؤدي إلى هلاكها كلها:"تحتاج سفينة الأمة إلى ربابين مهرة يحسنون قيادة دفتها إلى شاطئ السلامة والنجاة "[1] جاءت هذه الاستعارة (تركيبا إضافيا) والمضاف نكره، اكتسبت التخصيص، من إضافته إلى المعرفة، إنها ليست السفينة المتعارف عليها من أخشاب ودسر، بل هي سفينة من نوع خاص، ربابينها هم أبناء الأمة (المهرة) قادرون على قيادة الأمة وفق منهج قويم وشرع صحيح فتجري في بحر من الأمان حتى ترسو على شاطئ السلامة والنجاة، هذه السفينة الخاصة لا ترسو على شاطئ رملي، إنه شاطئ يناسب خصوصيتها، فجعل البحر أمانا والشاطئ نجاة وسلامة.

إذا، من تسلح بالدين والاعتدال والوسطية أحسن التصرف في النوازل والأزمات.

ويستعير السفينة للأمة في موضع ثان، يقول: "وإذا كثر الملاحون غرقت السفينة"[2]

ويقول: "حماية للسفينة من الإغراق بأيدي أقوام سفهت أحلامهم"[3]

ويصور لنا هذه الأفكار المنحرفة الناتجة من مرض العقول في صورة إفرازات ناتجة عن مرض: (إفرازات نفسية داكنة)[4]، والإفرازات لا تكون إلا نتيجة مرض أو ألم جسدي، والنفس لا تفرز، إنما يفرز الجسد، لكن جعل تلك الأفكار المنحرفة الضالة إفرازات نفسية داكنة، وهذا اللون الداكن دليل على سوء وضلال، إذ البياض عادة يرمز به إلى الصفاء والنقاء، واللون الداكن يرمز به إلى الضلال والشيء المجهول.

ومثل هذه الصورة المنفرة المريضة قوله: "وهذا كله يلقي على كواهل علماء الشريعة، ودعاة الإصلاح في الأمة والأجيال التي تنشد سبيل الخلاص من إفرازات تجاوز منهج الوسطية المتألق"[5].

(1) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة من منبر الكعبة الشريفة مرجع سابق، ص 471.

(2) المرجع السابق ص 487.

(3) المرجع السابق ص 444.

(4) المرجع السابق 479.

(5) نفسه 423.

وأيضا يقول: "لا يجوز أن يُحمّل الإسلام وأهله المعتدلون جريرة هذه الأحداث التي هي إفراز فكر تكفيري منحرف"[1]. فقد جعل الإفراط في فهم الشريعة وتجاوز منهج الوسطية إفرازات فكر مريض منحرف.

ويقول عن الفكر المنحرف: (وأسبابه كثيرة، أهمها...إفرازات تربية على مناهج مشبوهة، والنظرة الضيقة العجلى للآخرين)[2] وهنا يوضح لنا بعض أسباب ظهور هذه الأفكار المنحرفة (إفرازات تربية على مناهج مشبوهة) لقد جعل ما ينتج من تلك المناهج المشبوهة بابتعادها عن المنهج القويم القائم على الفهم الصحيح للدين، شبه تلك النتائج بالإفرازات، إنها إفرازات مؤذية كريهة ظهرت بسبب خلل في المناهج، كما تظهر الإفرازات المرضية بسبب مرض، بجامع الأذى في كل منهما.

وسنجد للنار بشرها وشررها حضورا لتصوير الأذى والهلاك المترتب على هذه الأفكار المنحرفة (أين عقلاء الأمة عن تطاير شررهم؟ فإن لم يتداركوها يكون ضرامها جثثا وهاما، ويحصل مالا تحمد عقباه)[3] إن أفكار هؤلاء المنحرفين فكريا وعقديا بمثابة شرر متطاير، إن تُرك اشتعلت النيران فأهلكت كل ما حولها، لكنها ليست نارا ضرامها الحطب، إنها نار ضرامها بشر وعقول أجيال تحرقها هذه النيران.

صورة تستدعي في نفس المتلقي صورة النار وما تعقبه من هلاك ودمار، فكيف للمتلقي أن يتعامل مع هؤلاء المنحرفين فكريا بعد تخيل هذه الصورة؟ لا شك أنها صورة تستوجب الحذر والحرص في التعامل مع ما تثير في النفس من الشك والريبة.

وسنجده يشبه السرعة بالطيران في قوله: "إن يسمعوا هفوة طاروا بها فرحا" [4]

ويقول في موضع آخر "الحذر من الاجتهادات الفردية، والتصرفات الأحادية وبث الفتاوى الطائرة التي تدع العقول حائرة، وتجر البلاد إلى فتن عمياء"[5]، والطيران يستعار لغير ذي الجناح إذا أريد التعبير عن السرعة، يقول الشاعر الحماسي غلاق بن مروان [6]:

(1) نفسه والصفحة نفسها.

(2) المرجع السابق ص 498.

(3) المرجع السابق.

(4) المرجع السابق ص 433.

(5) السابق ص 487 .

(6) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: أحمد أمين . عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت ط1 1411، ج 1 : ص 456

وكانت بنوذبيان عزا وإخـــــوة فطرتم وطاروا يضربون الجماجما

وكما جاء في الخبر: (كلما سمع هيعة طار إليها)[1].

إن استعارة الطيران لما يصدر من العدو، سواء فرحهم بهفوات صدرت من طلاب العلم . وهذا إشارة من الخطيب أن المسلمين قد تصدر منهم هفوات وكبوات، فهم غير معصومين من الخطأ والزلل. واستعارة الطيران لانتشار الفتاوى الصادرة من اجتهادات فردية توقع في أخطاء جسيمة، وتحديد مقدار السرعة بالطيران فالمتلقي يستدعي في خياله صورة الطائر المحلق وسرعة وصوله فيدرك سرعة استغلال العدو للهفوات وسرعة بثهم للفتاوى الخاطئة فيها تحذير للمتلقي وتوعية له بأخطار العدو.

ويقول في حديثه عن المرأة وتكريم الإسلام لها: "ونأت بها عن مسالك التحرر من القيم، والهبوط إلى براثن الإباحية والانحلال، والانسلاخ من الفضائل، وسلوك مسالك التبرج والسفور والاختلاط"[2]

لقد شبه الخروج من الفضائل بسبب الإباحية بالانسلاخ من الفضائل، والانسلاخ في أصل اللغة يعني الكشط، جاء في لسان العرب: "شاة سليخ: كشط عنها جلدها"[3]، ومن المجاز: سلخنا الشهر وانسلخ الشهر، قال الشاعر:

إذا ما سلخت الشهر أهلكت مثله كفى قائلا سلخي الشهور وإهلالي[4]

ومما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: (وآية لهـــم اللـــيل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) {يس 37}. "فشبه النهار بجلد الشاة ونحوها يغطي ما تحته منها، كما يغطي النهار ظلمة الليل في الصباح، وشبه كشف النهار وإزالته بسلخ الجلد عن نحو الشاة فصار الليل بمنزلة جسم الحيوان المسلوخ منه جلده" [5]. فجعل الخطيب الفضيلة جسما مغطى بالقيم والمبادئ وتعاليم الشريعة السمحة التي كرمت المرأة، وخرجت بها من ذل الجاهلية الأولى، وجعل خروج المرأة من هذه القيم والمبادئ بمثابة الانسلاخ والنزع من الفضيلة.

وهذه الاستعارة أدت دورها في الكشف للمتلقي عن مخططات العدو تجاه المرأة المسلمة والحذر مما يحاك تجاهها.

(1) انظر: أسرار البلاغة: ص55.

(2) اد.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة من منبر الكعبة الشريفة مرجع سابق ص ص 425.

(3) ابن منظور: لسان العرب، جدار صادر بيروت، هـ.د مادة (سلخ).

(4) انظر: الزمخشري، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت ط1 1412 هـ (سلخ).

(5) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس ج23: ص 18.

وفي خطبة (حرب المفاهيم) استحضر الشيخ السديس العواصف وما تحمله من تدمير وهلاك لتصوير الفتن، يقول: "تمر الليالي والأيام، وتكر الشهور والأعوام، ولا تزال أمة الإسلام تتجرع المآسي وتعيش الفتن، وتعصف بها الابتلاءات، وأمواج الفتن"[1]

ويقول في موضع آخر: "وهل عواصف الغزو الفكري والعقدي والأخلاقي والإعلامي المعاصر إلا حرب مفاهيم؟ " [2].

ويقول في موضع آخر: (لأنهما لأمة الأمان أمام عواصف هوجاء التي تمر بها أمتنا)[3] لقد جعل الابتلاءات والفتن عواصف تعصف بالأمة الإسلامية، والعصف في أصل اللغة إما أن يعني: جز ورق الشجر[4]، ومنه قوله تعالى: (والحب ذو العصف والريحان)[5]، وهنا يكون الخطيب قد شبه تلك الفتن والابتلاءات وهي تودي بأبناء الأمة الإسلامية إلى الهلاك، بحال جز الشجر وتساقط الورق، بجامع الانتهاء في كل منهما، أو يكون العصف من عصف الرياح، وهو: اشتداد هبوبها[6] وعصف الرياح في القرآن الكريم لا يأتي إلا في مواضع العذاب والتخويف والتهديد، قال تعالى: (فالعاصفات عصفا) [سورة المرسلات: 2] وقال تعالى: (أعمالهم كرماد اشتدت بها الريح في يوم عاصف) [سورة إبراهيم: 18]، وعلى هذا المعنى تكون الابتلاءات والفتن كريح شديدة عاصفة بجامع التدمير والضرر، ومن هنا نلحظ قوة التعبير عند الخطيب، إذ لم يعتمد على أسلوب صريح مباشر، فلم يقل أن الأمة تمر أو تعيش حالة من الفتن والابتلاءات، لأن هذا التعبير يتلقاه المتلقي مباشرة ويقبله دون إعمال ذهن، أو استشعار مرارة وعظم تلك الفتن، فالأمة تعتني بأبنائها منذ بزوغ شمسهم في هذه الحياة، فلا شاردة ولا واردة في حياة الفرد إلا بيّنها الإسلام، ثم يأتي الأعداء ليجزوا أبناء هذه الأمة جزا، بزجهم في حرب فكرية مدمرة، ومن هنا نرى أكثر المتأثرين فكريا بالمفاهيم المغلوطة هم من الأحداث أسنانا، الذين لم تثبت أقدامهم على منهج فكري عقدي صحيح، لقد أدى (العصف) هذا المعنى المراد المؤثر المتجدد على صيغة الفعل المضارع (تعصف)، ليؤدي دلالة الاستمرار التجددي الذي تعيشه الأمة مع هذه الفتن، تؤذيها ولا تنهيها، فالأمة الإسلامية باقية ببقاء القرآن والسنة.

(1) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة من منبر الكعبة الشريفة مرجع سابق ص 389.

(2) المرجع السابق 395.

(3) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة من منبر الكعبة الشريفة مرجع سابق ص 472.

(4) ابن منظور: لسان العرب (عصف).

(5) سورة الرحمن الآية 12.

(6) لسان العرب (عصف).

ومثل هذه الاستعارة قوله: (عواصف الغزو الفكري)، فنلحظ أن التعبير جاء على صيغة منتهى الجموع، ولم يكن اختيار هذه الصيغة اعتباطيا، بل كان اختيارا واعيا من الخطيب، فالسياق يتحدث عن الفكر، والفكر له ينابيع متعددة، ومشارب مختلفة، فعواصف الغزو الفكري لا تأتي من مصدر واحد، بل من مصادر مختلفة من وسائل الإعلام والاتصالات، ومن دول متعددة، وطوائف مختلفة، ومذاهب شتى، فاختلاف المصدر وتعدده ناسبه التعبير بصيغة الجمع، وإذا تعددت هذه العواصف الفكرية على عقل المسلم فإنها ستحدث التغيير في فكره ودينه فيظهر الضرر في جسد الأمة، هذا الغزو الفكري العقدي والإعلامي، حاله حال الريح الشديدة المدمرة، ومن هنا استحضر الشيخ صورة تلك الريح لهذا الغزو، ليقنع المتلقي بمدى خطورة هذا الغزو، الذي يجب على المسلم التصدي له من خلال التزود بنور الإيمان.

وقد وظّف الشيخ السديس الاستعارة لتصوير حال الأمة مع هذه العواصف الابتلائية والفكرية (تتجرع المآسي)، فالأمة إنسان يتجرع الشراب، والتجرع مأخوذ من تتابع الجرع مرة بعد أخرى كالمتكاره، وقيل: الشرب قليلا قليلا[1]، ومجيء الفعل مضارعا على هذه الصيغة الصرفية توحي بمعنى الكره والتثاقل والبطء في الشرب، إذ هو مشروب مكروه (يتجرعه ولا يكاد يسيغه)[2] وصيغة التفعل تدل على تكلف الشرب، إذ لو قال (جرع) لما أفادت المعنى المراد، لأن جرع الماء لا يشير إلى معنى الكراهية، فالتاء في صيغة تفعل جاءت لتدل على معنى تكلف والكره [3].

لقد تخيل الخطيب هذه المصائب مشروبا مكروها، يشربه الإنسان بتكلف قليلا قليلا، لتؤدي هذه الاستعارة وظيفتها الإقناعية لدى المتلقين، فالأمة تتلقى تلك الابتلاءات والفتن تدريجيا، وهي وإن كانت تتأذى وتتضرر من هذه الفتن إلا أنها لن تؤثر فيها، ولو استعمل الخطيب الاستعمال الحقيقي للغة وقال: إن الأمة تتلقى فتنا وابتلاءات لما أثر هذا التعبير في جمهور المتلقين، حيث استطاع الخطيب باستعماله لهذه الاستعارة وهذه الصيغة نقل خيال السامع والتحليق به في عالم الألم والمعاناة التي تعانيها الأمة، واقع يتطلب من المتلقين التكاتف للنهوض بها والوقوف معا للتصدي لهذه الفتن المكروهة المؤذية.

إن ما تمر به الأمة من ابتلاءات فكرية وعقدية مدمرة بسبب انحراف المفاهيم حقيقة مرة، يقول الشيخ السديس: "انحراف المفاهيم هو الخلاصة المرة التي آل إليها الانحراف التأريخي برمته"، ويقول:

(1) لسان العرب (جرع).

(2) سورة إبراهيم الآية 17.

(3) انظر: محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وبيانه، دار الرشيد، دمشق، ط1 2007، مجلد 3: ص 1340.

"وتللك هي الحقيقة في حال كثير من أبناء أمتنا اليوم" [1]، الخلاصة من خلص، أي: الوصول إلى الشيء دون كدر أو شائبة [2] فالنتيجة الواضحة التي لا يشك فيها أحد جراء هذه المفاهيم المنحرفة هي نتيجة مرة، والمرارة ضد الحلاوة، والمر نقيض الحلو[3]، والمرار صفة حسية للطعام غير مرغوب فيه، فاستدعى الخطيب صورة الطعام طعام غير مرغوب فيه لمرارته اللاذعة، ثم ادعى أن هذه النتيجة هي الطعام غير المرغوب فيه نفسه، وحذف المشبه به وأتى بما يدل عليه وهو (المرارة) على سبيل الاستعارة المكنية، حتى ينقل المتلقي من العالم المعنوي إلى العالم الحسي فيشعر الجمهور طعم هذه الحقائق التي لن ينكرها أحد، وبالتالي ينفر الناس من هذه المفاهيم المنحرفة لما يترتب عليها من نتائج مرة مزعجة غير مرغوب فيها، ولعل تكرار الوصف بالمرارة تأكيد على التنفير والاستكراه، وبالتالي أدعى للإقناع، ولا ننسى هنا أن الجمهور جمهور عريض من مشارب مختلفة ويحمل أفكارا متعددة، وبالتالي استدعاء هذه الصور القريبة أدعى للقبول عند المتلقي، فتكون الاستعارة أدت وظيفتها الإقناعية.

وسيظل الإسلام حاميا لهذه الأمة التي تعاني من ويلات الفتن وابتلاءات الزمن، فالإسلام دين الوسطية والاعتدال، ينأى بأتباعه عن الهفوات، يقول الشيخ السديس في خطبته (الوسطية والاعتدال): "ورمي أتباعه بمصطلحات موهمة، وألفاظ مغرضة، لتشويه صورته والتنفير منه تصيدا لأخطاء بعض المنتسبين إليه"[4] فالإنسان من جهة الشريعة والإسلام غير معصوم عن الخطأ، جاء في محكم التنزيل: (إلا من تاب وآمن)، وقال المصطفى – صلى الله عليه وسلم – : "كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"[5]، إن هذه الأخطاء التي تصدر من النفس البشرية لا تقدح في الفطرة الربانية والشريعة السماوية فهي أخطاء لا تخرج من الملة ويتوب عليها الخالق، إلا أن أعداء الدين يتصيدون هذه الأخطاء، لكن يبقى السؤال اللغوي، هل الأخطاء تصاد؟ نعم، لقد جعلها الشيخ صيدا للمغرضين، فحلّق بالمتلقي في عالم الخيال، إنها أخطاء تمر سريعا وتختفي وتتوارى، لقد شبه الأخطاء الصادرة من المسلم ولا تظهر جليا إلا بالبحث عنها والإمساك بها بالحيوانات الصغيرة التي يبحث عنها الإنسان ليصطادها، والجامع هنا الزوال والتواري في حال عدم البحث عنها.

(1) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة، ص 390.

(2) لسان العرب (خلص)، أساس البلاغة (خلص).

(3) انظر: لسان العرب (مرر).

(4) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة، ص420.

(5) موقع الدرر السنية www.dorar.net

وشتان بين صيد وصيد، هؤلاء المغرضون يبحثون عن أخطاء المسلمين ويتمسكون بها، وهي في الحقيقة أخطاء غير واضحة وغير ظاهرة إلا بالبحث عنها إنه الغرض الدنيء، وهو تشويه الإسلام والتنفير منه، ولو عبّر الخطيب بقوله: (كشف أخطاء المنتسبين إليه) بدل (تصيد أخطاء المنتسبين إليه) لكان تعبيرا عاديا لا يؤثر في المتلقي ولا يؤدي المعنى الذي يريده الخطيب في بيان غرض هؤلاء الأعداء من البحث عن أخطاء بسيطة لا تؤثر في المنتسبين له.

لكن هل تصيد الأخطاء على المسلمين سينفر من الإسلام؟ لقد أجاب الشيخ بقوله: "هو بثوابته وأصوله يستعصي على التميع والذوبان، وبمرونته يواكب التطور"[1] هؤلاء المنهزمون فكريا يسعون إلى تمييع الدين، وذوبان الشريعة، (والدين والشريعة) أمر معنوي كيف يميع ويذوب؟! هل كان الدين جامدا حتى يذوب؟ لا، الجمود هنا يحيل إلى معنى رديف وهو (الثبات)، الدين ثابت وهذا لا يرضي أعداء الأمة، لأن ثبات الدين يعني ثبات الأمة، والأعداء يسعون إلى القضاء على الأمة الإسلامية وعلى الدين الإسلامي من خلال تمييعه بعد ثباته وبالتالي يسهل الانتهاء منه فلا يبقى له أثر (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) { يوسف: 37}.

فالإسلام ثابت لا يذوب مع هذه الافتراءات، لقد صور الشيخ الإسلام في صورة سائل جامد لا يذوب ولا يتميع، بجامع الثبات والبقاء على الهيئة نفسها، وللصيغة دورها في جمال هذه الصورة، ف (تفعل) مزيد الثلاثي تدل على المطاوعة، و (فعلان) تدل على الحركة والاضطراب، ونلحظ تظافر الأفعال المضارعة (يستعصي، يواكب، يبني) أفعال تدل على الاستمرار التجددي، هو دين ثابت الأركان، وفي الوقت نفسه يواكب العصور والأزمان، ولا شك في هذه الخصيصة التي تميز بها خاتمة الأديان.

لقد نقلنا الخطيب إلى كيان حسي ملموس، ليدرك المتلقي ثبات هذا الدين، إنه الثبات المرن الصالح لكل زمان ومكان، فالثبوت هنا لا يعني الجمود، لهذا وازن الخطيب بين مفردتين متضادتين، الأولى: الثبات، ويدل على هذا المعنى قوله (الإسلام يستعصي على التميع والذوبان)، والثانية: المرونة، في قوله: (بمرونته يواكب التطور)، وهذا هو دين الاعتدال والوسطية الذي يريد الخطيب إيصاله إلى شريحة عريضة من المتلقين.

إن دين الوسطية ينقل البشرية من التيه والضلال، إلى الطريق القويم والأمان، في حين "تقاذفت الإنسانية أمواج من الأنظمة والأهواء، ومُزقت كياناتها، في رحلة منهكة من الضياع، وهوة سحيقة من

(1) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة ، ص .420.

الفناء، وبؤرة عميقة من التيه والعدم، وذلك بسبب ألوان من الصلف والتطرف، والأحادية في الرأي، والشطط في الرؤى والمواقف"[1]، إن ما يصدر من البشر من أنظمة وقوانين لا بد أن تتأثر بالأفكار والآراء والأهواء، وبالتالي لن تخلو من الإجحاف والظلم، ولذلك لتكون صالحة لكل زمان ومكان، لقد جعل الخطيب هذه الأنظمة الجائرة كالبحر المتلاطم الأمواج، يقذف بالناس يمينا وشمالا، يتخبطون في الظلام، والجامع بين الحالتين، هو: عدم الاهتداء في كل، واستعمال الفعل: (تقاذفت) على صيغة (تفاعل) الذي يدل على المشاركة له دور في الكشف عن هذه الصورة المقنعة للمتلقي، فالأهواء والأنظمة المختلفة اشتركت في التلاعب والتضليل بالبشر، وأدّت إلى تمزيق الإنسانية في رحلة منهكة من الضياع، فالإنسانية[2] جملة الصفات التي ترتقي بالإنسان عن جنس الكائنات الحية، أصبحت ثوبا ممزقا لا قيمة له، بسبب هذه الأنظمة والأهواء، فما دور المتلقي أمام هذه الصورة المنفرة من الأفكار المسمومة والأنظمة الهدامـــة ؟! حتمـــا سيتخذ المتلقي موقفا صائبا مبنيا على إقناع هذه الصورة له.

ويقول في موضع آخر في استعارة التمزيق: (وإذا كان المصلحون يرون الأمة ممزقة والممتلكات مغتصبة والمقدسات مستلبة، فهل الخروج من هذه الرزايا بتكفير الولاة "[3] الأمة تجسدت في صورة شيء ممزق، والتمزيق يوحي بالاختلاف والتنازع بين أطراف متعددة على شيء معين وكل منها يتناوشه من جهة حتى تمزق هذا الشيء والتمزيق أيضا يوحي بالانتهاء، والهلاك، فالشيء الممزق لا قيمة له ما أدى إلى مرض الأمة "فلم يزد ذلك جسد الأمة إلا أوصابا وتفريقا وجروحا وتمزيقا"[4]، فالأمة الإسلامية تعرضت لمصائب وابتلاءات موجعة، ما أدى إلى جرح جسدها وتمزيقها، وهي بحاجة إلى نهضة أبنائها لمساعدتها وعلاجها حتى تتماثل للشفاء السريع فلا يتمكن اليأس من شفائها عند أبنائها.

إن صورة (الجسد المريض) صورة خيالية بديعية مؤثرة تقنع المتلقي بما يؤول إليه حال الأمة مع هذه الفتن، ولو اعتمد الخطيب على الاستعمال الحقيقي المباشر وقال: (إن الأمة تمر بحالة من الفتن والابتلاءات تؤدي إلى تفريق أبناء الإسلام وضعفهم" لكان تعبيرا مباشرا لا يلامس شغاف القلوب ولا

(1) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة.

(2) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط 5 1432 هـ: ص.

(3) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة ص 466.

(4) المرجع السابق والصحيفة نفسها.

يحتاج إلى كد الذهن، وبالتالي قد لا يحدث أثرا لدى المتلقي إذ إنه: "كلما تكثفت الحركة الذهنية في إنتاج المعنى الاستعاري كان ذلك أدعى في التأثير لردود الفعل عند المتلقي"[1].

وستنهض الأمة من عثرتها، وتفيق من غفلتها، يقول الشيخ: "الأمل بعد الله في أمة الوسطية والاعتدال أن تنهض من عثرتها وتفيق من غفلتها وتجمع شتاتها"[2]، لقد شبه الشيخ الأمة الإسلامية وقد أحاطت بها أنظمة بشرية مضللة وتكالبت عليها الأمم، شبهها بشخص غافل يسير في الطريق، فتعثر، ثم يفيق من هذه الغفلة، بجامع الاهتداء بعد الضلال، لوحة مؤثرة تنقل المتلقي من العالم المعنوي إلى العالم الحسي الظاهر المؤثر.

هذه الأنظمة البشرية تمثل صراعا حضاريا مرعبا متسلطا، يقول: "ولئن آل حال العالم إلى ما نراه اليوم من تسلط وصراع حضاري مرعب، فإن الأمل بعد الله في أمة الوسطية والاعتدال"[3] وهنا نجد المتلقي أمام حضارات متعددة بعضها أقوى من بعض ويتسلط بعضها على الآخر، فينشب الصراع بينها، إنه الصراع المرعب المخيف، فهو يؤدي إلى هلاك البشرية، لقد صور صراع تلك الحضارات وتسلط بعضها على الآخر بالصراع بين الكائنات الحية، وتسلط بعضها على بعض ويؤدي ذلك إلى الخلاف والشتات، فالأفكار المسمومة والمنحرفة ظهرت في فئة الشباب بسبب تلك الفتن التي نشأت بسبب الصراعات التي تشتت الأنظمة البشرية: "ومما يزيد في الأسى، ما يرى من تسرب هذه اللوثة الخطيرة إلى بعض شباب الأمة الغض"[4]، هذا الفكر التكفيري يستهدف فئة الشباب، وهذه الفئة العمرية ذات فكر، لم يستو على عوده، وتغييره عن مساره أمر يسير، وأراد الخطيب أن يوضح هذا في صورة ماثلة للعيان، فجعل الشباب غضا، والغض تعني الطري الناعم[5]، الشباب الطري: لقد تصور شيئا طريا ناعما، تستطيع الفئة الضالة أن تشكلهم كيفما يشاءون، وهذا إيقاظ للمتلقي وتنبيه لهم بمعرفة دسائس الفئة الضالة وطرقها لضرب الأمة الإسلامية في مقتل.

(1) د. آزاد حسان شيخو، النقد المعرفي في الدرس البلاغي ، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن 2013 : ص 70.

(2) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة ص 421.

(3) نفسه ص 421.

(4) نفسه ص 465.

(5) انظر: لسان العرب (غضض)

من هنا يجب على المسلمين تربية الأجيال وفق الشريعة ذات التعاليم السمحة، (ومن رحمة الله تعالى بعباده أن منحهم شرعة غراء تحكمهم في جميع الظروف والأوقات"[1] ويقول في موضع آخر: (تحت مظلة الشريعة الغراء، والدساتير العالمية)[2]، الغرة: بياض في الجبهة، وفي الصحاح: في جبهة الفرس، فرس أغر وغراء"[3]، فالشريعة غراء، أي بيضاء ناصعة بنور رباني، والبياض هنا ليس اللون المتعارف عليه، فالشريعة أمر معنوي، ليس لها لون، لكن الخطيب استدعى صورة الفرس الأغر وجسد الشريعة في هذه الصورة ليوضح صفاء هذه الشريعة وطهارتها، والبياض عند العرب يستدل به على هذا المعنى، يقول الشاعر:

بيض صنائعنا ســـود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينـــــــا

ويقول عن الحرب الفكرية وقد جسدها في صورة وحش: (لا بد أن يرفع عن هذه الأمة هذا الكابوس، وأن تهتم أنياب هذه الحرب الضروس التي ما زال مشتعلا ضرامها، حاميا وطيسها)[4]، الحرب ليست لها أنياب، لكن الخطيب هنا أراد التنفير منها وبيان أذاها الشرس، فصورها في صورة وحش مفترس كشر عن أنيابه، فجسد المعنوي في صورة حسية ماثلة للعيان، والجامع بين الصورتين الأذى والهلاك المرتقب منها.

وفي صورة أخرى مستدعيا الوحش نفسه، يقول: (الحرب طويل ذيلها، قليل نيلها، كثير ويلها)[5]، فالحرب ليس لها ذيل، لكنه جسد الحرب في صورة كائن حي مخيف له ذيل طويل.

وفي الوقت نفسه صورها بصورة حسية أخرى لا تقل شأنا عن الصورة السابقة في التنفير من الحرب، فقد جعلها نارا مضطرمة حامية، يقول: (لذا يحتم إطفاء فتيلها حتى تضع الحرب أوزارها) لقد استدعى الجانب المؤذي للنار، وهذه الصور للحرب ترد عند العرب كثيرا، ذلك أنهم عانوا ويلات الحروب والهلاك.

(1) نفسه 472.

(2) نفسه 475.

(3) لسان العرب (غرر).

(4) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة، ص471.

(5) نفسه والصفحة نفسها.

كما يستحضر صورة الناقة: (ألا يتكلف لي أعناق النصوص لتنزيلها على وقائع العصر)[1]. جعل النصوص الواضحة البينة حين تفسّر وتأول على غير المراد منها، جعلها كالجمال التي تلوى أعناقها عند نحرها، لقد اختار الشاعر الناقة، لحضورها الدائم عند العرب قديما وحديثا، كما أن الناقة حيوان ضخم لا تخفى على المشاهد، فلا تحتاج إلى البحث عنها وهي حاضرة، وكذا النصوص الصحيحة الصريحة واضحة ظاهرة لا تحتاج إلى تفسير أو تأويل.

ويستحضر صورة الطيور للفتاوى: (بث الفتاوى الطائرة، التي تدع العقول حائرة، وتجر البلاد إلى فتن عمياء)[2]، الفتاوى لا تطير، ولكن لسرعة انتشارها وتداولها بين الناس صارت هذه الفتاوى مثل الطيور المحلقة، ولم يصرح بالمشبه به، لكنه أتى بلازم من لوازمها، وهو (الطيران).

هذه الفتاوى الطائرة لم تصدر عن رأي وروية، ونتيجة سرعتها صارت تحمل معها أمورا تدعو إلى الشك والريبة ما أدى إلى حيرة العقول، ونلحظ دقة التعبير، فلم يقل: (تدع الناس حائرين) بل اختار العقول، إذ ليس كل الناس أولوا ألباب، فالعقل حين لا يعقل صاحبه عن الأمور المشينة المنافية للعقيدة أ العرف ليست بعقول، أما العقول الرزينة لا تقبل بأمور تدعو إلى الشك، بل تتأنى وترجع الأمور إلى أصلها (الكتاب والسنة) لكن هذه الفتاوى الطائرة يبدو أنها من سرعتها لم تجعل من القرآن والسنة منطلقا لها، مما جعلها تحمل بعض الأهواء، وهذا مما لا يقبله العقل السليم.

هذه الفتاوى الطائرة حملت بين جناحيها من الويلات والخيبات ما جعلها توقع البلاد في (فتن عمياء) فتن لا تبصر، تتخبط خبط عشواء، والفتن أمر معنوي لا تطير، لكن الخطيب حلق بالمتلقي في عالم من الخيال، طيور محلقة، لكنها ليست من جنس الطيور المعروفة، إنها طيور من نوع خاص، فتن ترفرف بالويلات والحسرات، إن الاستعارة هنا تخلق الفرصة لإدخال العناصر اللازمة لاكتمال التجربة، فالاستعارة تنفرد دون التشبيه بقدرتها على الإيحاء، وبالتالي تكون أكثر إثارة لذهن المتلقي[3].

(1) نفسه ص481.

(2) نفسه ص 487.

(3) انظر: جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار الكتاب المصري، القاهرة ط1 1424هـ: ص 243.

ثم وضح حال هذه الفتن مع من يعايشها، يقول: (فتنة هوجاء يغالبون تيارها، ويروضون بالعزيمة والحنكة زخارها.... يسعون بالإيمان والثبات والدعاء لإطفاء لهيب نارها وأوراها)[1]، فالفتنة تارة بحر يغالبون تياره، وتارة دابة تحتاج إلى ترويض، وكلتا الصورتين تدلان على أن هذه الفتن تحتاج إلى صبر ومجاهدة في التغلب عليها.

ويستعير الغرس الذي يحتاج إلى توفير عوامل بقائه للإيمان الذي يحتاج إلى تعهد ورعاية، يقول: (لإيمان في شغاف القلب مغروس)[2]، الإيمان أمر معنوي لا يغرس، لكن الخطيب هنا جعله كـ (نبتة) تغرس، وتتعهد بالرعاية والاهتمام حتى تنمو، وهذه الصورة تتوافق مع قول المصطفى (ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه ينصرانه أو يهودانه، أو يمجسانه...)، ونلحظ أنه قال (الإيمان) ولم يقل (الدين) والإيمان لغة: التصديق، وشرعا: اعتقاد بالقلب واللسان وعمل بالجوارح، وهو بضع وسبعون شعبة[3]، أما (الدين) فهو: "الملة، دين الله : ملة الله التي اختصها وهي الإسلام" [4].

فالدين قد يختلف بين الناس، فهم ليسوا على دين واحد، أما الإيمان فإنه مغروس في القلب، قال تعالى: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)[5]. لكن هذا الإيمان إذا لم يسق بالدين الصحيح فإنه يذبل ويموت، واختار (شغاف القلوب) وقدمه على الخبر (مغروس) وذلك للتركيز على أهمية المكان فهو ليس في القلب، بل في شغاف القلوب، وشغاف القلب وعاؤه.

ويصور سماحة الدين وعدله بنبع ماء، فيقول (دين يفيض رحمة وعدلا وأمانا، وينضح خيرا وسلاما وحنانا)[6]، هل الدين يفيض؟ وماهو الفيض؟ جاء في الصحاح " فاض الماء، يفيض فيضا وفيوضا... كثر حتى سال كالوادي"[7]، ويقول عن نضح: "نضح البيت ينضحه: رشه"[8] والفيض والنضح يكونان للماء، لقد استدعى الخطيب صورة النبع الذي يفيض ماء، وجعله مشبها به للدين الذي يفيض عدلا ورحمة وأمانا، فهذا النبع ليس من جنس المنابع المعروفة المتعاهد عليها، إنه نبع من نوع خاص لا يفيض ماء بل يفيض عدلا ورحمة وأمانا.

(1) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة ص488.

(2) نفسه ص 490.

(3) انظر: شرح ثلاثة الأصول للعلامة محمد بن عثيمين ص 79.

(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، تحقيق د. رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1 1987: ص 688 (دين) .

(5) سورة لقمان الآية 25.

(6) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة ص510.

(7) الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان 1989: ص1277 (فيض).

(8) المرجع السابق 1618 (نضح) .

لقد استحضر الأمور المعنوية، وجسدها في صورة حسية مدركة أمام المتلقي، ترغبه في الدين الصحيح الذي بُعث به محمد – صلى الله عليه وسلم –إنه الدين الحق، لا دين الإرهاب والتخويف والقتل الذي جاء به شرذمة جاهلون يتسترون تحت رداء الدين، والدين منهم براء.

ويستحضر السلطان القوي لتصوير غلبة الهوى: (غلبة سلطان الهوى والظلم والطغيان في كل زمان ومكان)[1]، والهوى والظلم والطغيان أمور معنوية جسدها في صورة كائن حي له قوة وسلطة، لقد تخيل الخطيب (الهوى والظلم والطغيان) حين يتغلب على الإنسان ويسيطر عليه ويوجهه شبهه بإنسان له سلطان وقوة.

ويجسد الدين في صورة إنسان صالح: (إنه دين المحاسن والفضائل والمكارم، يبني كيان الأمة ولا يهدم. يسعى إلى التشييد والإعمار لا إلى الخراب والدمار، جاء بقطع دابر الجريمة) [2] جسد الدين في صورة كائن حي يبني ولا يهدم، والبناء والهدم لا يكونان إلا في (المباني) لقد جعل الأمة بناء، والدين يعلي من هذا البناء، إن تمسك الأمة بهذا الدين هو الذي سيعلي من شأنها، فكلما ابتعدت عنه سيُهدم بناؤها، ومن هنا يسعى الأعداء لإبعاد الأمة عن الدين من خلال الغزو الفكري المنحرف، وبهذا يكون هدم الأمة، وطالما تمسك أبناؤها بالدين فلن يستطيع عدو أو حاقد هدم هذا الدين.

وحين تمسكت الأمة بالدين دانت لها المشارق والمغارب، إن الأمة الإسلامية وهي شامخة قوية بتمسكها بكتاب الله وسنة نبيه، تخضع لها مشارق الأرض ومغاربها، إن صورة النفوذ والسيطرة والهيبة للأمة الإسلامية، لقد جسد الأمة الإسلامية في صورة كائن حي له نفوذ وسلطان، تخضع له المشارق والمغارب، وهنا لا يقصد بالمشارق والمغارب (مشرق الشمس ومغربها) إنما أراد بهذا التعبير كناية عن العالم أجمع، إنه الانقياد الصحيح للأمة الإسلامية وفق منهج رباني سليم قائم على الكتاب والسنة، لا الأهواء ولا الأفكار المنحرفة التي تشتت شمل الأمة.

ويحذر الشيخ السديس من استغلال الإرهاب للدين، وجعل الدين مطية للإرهابيين: (وأشنع من ذلك، حينما يكون أربابه مرتدين لباس الدين، ومتسترين بزي المسلمين). فالدين ليس له لباس يخصه، ولكن الخطيب هنا أراد التحذير من هيئة هؤلاء المنحرفين الذين يتسترون بالدين، والدين منهم براء، إن الدين لا يكون بصلاح الظاهر وفساد الباطن، فإذا كانت الملابس تغطي فكرا منحرفا مخالفا للإسلام

(1) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة ص 491.

(2) المرجع السابق.

الحق، فإن الإسلام منه براء، وإن مما يقض المضاجع ويصيب الإسلام في مقتل هو تشويه صورة الإسلام والمسلمين بهذه النماذج المتلبسة بالإسلام.

من هنا لابد من محاربة الإرهاب وتجفيف منابعه: (لا بد من تجفيف منابع الإرهاب بشتى صورها، بما في ذلك الإرهاب الفكري والأخلاقي)[1] النبع لا يكون للإرهاب، لقد تخيل الخطيب أن الإرهاب بكثرته وسهولة انتشاره عند الجهال صار كالماء الذي ينبع، ونبع الماء كلما أخذ منه زاد في تدفقه، وهكذا الإرهاب كلما أعطي الكثير من الاهتمام زاد وكثر، لذا يتوجب علينا تجفيفه في مكانه والقضاء عليه في بؤرته.

ويستعير صورة الدابة التي تحتاج إلى ترويض للنفس الإنسانية: (ضبط النفوس بأعنة النظر العميق) ويقول: (لا يجوز أن يجعل الإسلام مطية الإرهاب).

كأن النفوس دابة لا بد من ترويضها بالعنان، والعنان "سير اللجام الذي تمسك به الدابة، وهو طاقان مستويان"[2]، ومن خلال العنان يسهل التحكم في الدابة، لقد استدعى الخطيب هذه الصورة، ثم صور النفوس في صورة دابة تضبط بالعنان، لكن العنان هنا ليس من جنس العنان المعروف، إنه جنس جديد من الأعنّة مصنوع من الفكر والتأمل، إبداع في عالم الخيال، يحلّق فيه المتلقي وتتجسّد أمامه صورة حسية مركبة تؤثر في فكره وخياله، صورة حسية مدركة (دابة بعنوانها) وأخرى معنوية متخيلة (نفس بعنانها).

وسيبقى التاريخ شاهدا على البشر وأفكارهم ف (التاريخ شاهد صدق لا يغيب، ورقيب عدل لا يخيب)[3]. فالتاريخ يشهد بما يسجله فيه البشر، أما هو فليس بشاهد ولا رقيب، ولكن الخطيب جسده في صورة إنسان صادق، وأتى بصفات هذا الإنسان الخيّر، فهو إنسان شاهد صدق، ورقيب عدل، وهو سيشهد بما يُسجل فيه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، من هنا يجب علينا أن ننتبه لما سنسجله للأجيال القادمة، وأن نكون كما كان عليه أسلافنا، حين سجلوا في صفحات التاريخ سطورا مضيئة بمداد الذهب، تروى لنا وتشنف مسامعنا سيرهم العطرة.

(1) المرجع السابق.

(2) المعجم الوسيط 655.

(3) د.عبدالرحمن السديس: كوكبة الخطب المنيفة ص 508.

خاتمة البحث:

تبين لنا من خلال البحث أن خطاب الدكتور السديس لم يكن خطابا إخباريا بقدر كونه خطابا تأثيريا تغييريا، وتبين أن الشيخ وظف الصورة البلاغية توظيفا حجاجيا مستغلا ما فيها من طاقة إقناعيه، فلم تكن الاستعارة بنوعيها مجرد زخرف يزين القول، بل جاءت مؤثرة مقنعة محركة مؤججة لمشاعر الحب والإيلاف، مخوفة من الإرهاب والاختلاف.

فالاستعارة ليست زيادة –عنده – عن الكلام، بل هي من نسيجه، تزيده استدلالا، وتعمقه في القلوب والعقول.

وبذلك تأكد لنا أن خطابه خطاب حجاجي إقناعي، يحمل طاقات فوق طاقات الكلام، ويحمل معاني ثانية، تؤدي إلى تغير موقف المتلقي، وتجعله كارها للخلاف محبا للإيلاف، مدركا أن سعادة الأمة ونهضتها يكون بوحدة الصف ووحدة الكلمة.